مقومات

الطبيب المسلم

د. ماجد رمضان

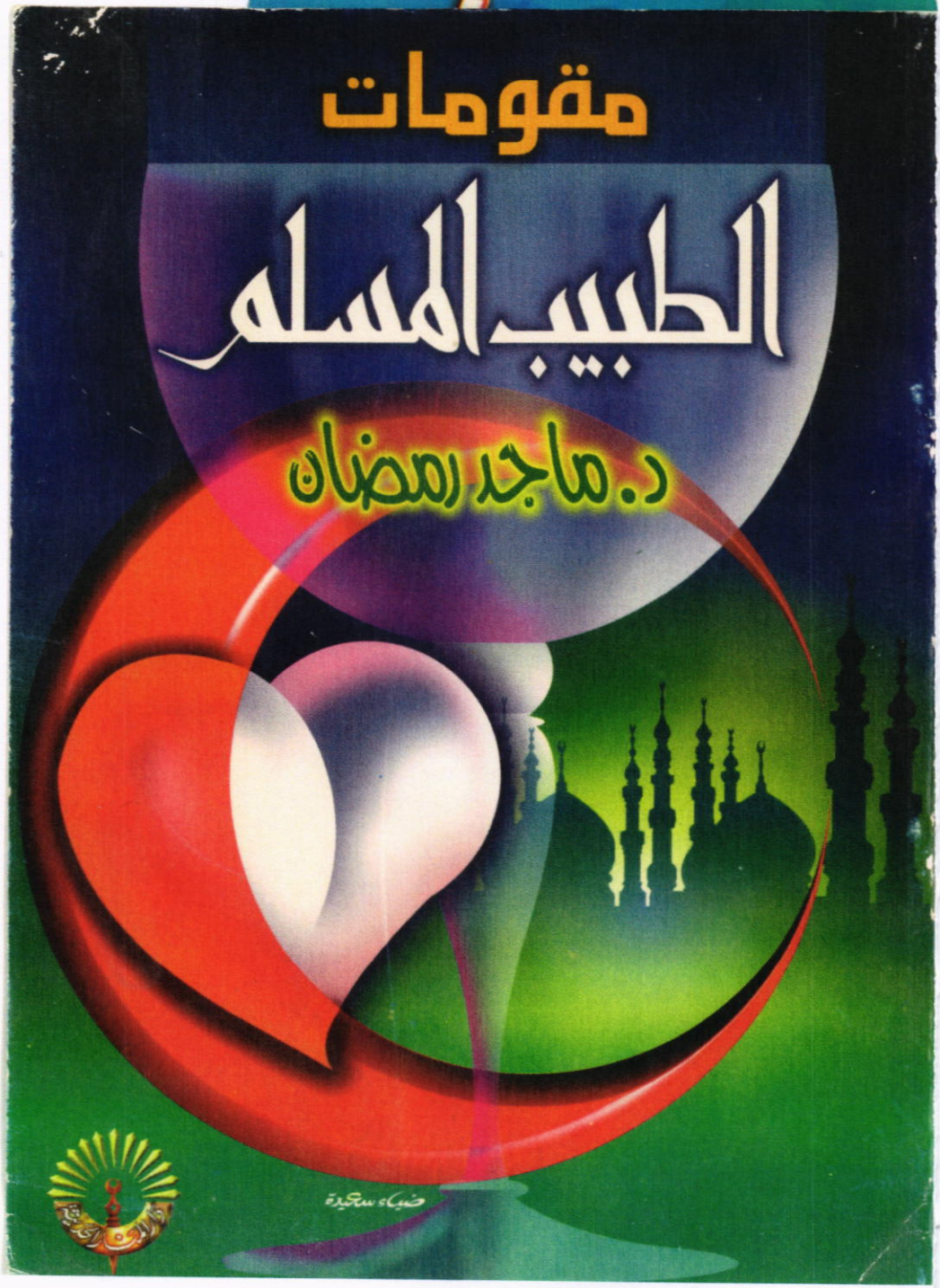

ضياء سعيدة

مقومات الطبيب المسلم

د. ماجد رمضان

دار المنار الحديثة للنشر والتوزيع
ت: ٢٠٤٤١٩٤

حقوق الطبع محفوظة
١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

الكتاب : مقومات الطبيب المسلم

المؤلف : د. ماجد رمضان

الناشر : دار المنار الحديثة للنشر والتوزيع

ت. وفاكس : ٢٠٤٤١٩٤

رقم الطبعة : الأولى (خاصة بالمؤلف)

رقم الإيداع القانوني : ٢٥٨٢ - ١٩٩٩

الترقيم الدولي : I.S.B.N. 977 - 5103 - 39 - 8

عدد الصفحات : ٦٤

تصميم الغلاف : أ. ضياء سعيده

إخراج فني : مكتب الأمل للتجهيزات الفنية

إخراج فني بالدار : أحمد عبد العزيز

الوكيل بصنعاء : شركة البراق لتقنية المعلومات شارع حده - صنعاء

مقدمة

ان الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

أما بعد..

إن رقى المجتمعات لا يقاس بما حققت من منجزات العلم وما اكتشفت فى عالم المادة من مخترعات فحسب، وإنما يقاس بهذا وبشىء أهم منه وهو سيادة القيم الإنسانية فيها.

وإذا كان الأفراد هم أساس المجتمع، والدعائم التى تبنى عليها كل نهضة اجتماعية كانت أم ثقافية أم علمية، عُنيت المجتمعات الإنسانية الراشدة بتربية الإنسان، فنمت فيه جوانب الخير وحاولت أن تستل من نفسه نزعات الشر.

والإنسان فى تاريخه الطويل لم يحظ بمكونات الشخصية الفاضلة المتكاملة كما حظى الإنسان المسلم حين تلقى إشراقة الوحى والهداية الربانية من نصوص القرآن والسنة المطهرة.

والمسلمون اليوم يعبون الثقافة والمعرفة عباً من المصادر الغربية الضاربة الجذور فى الوثنية الأغريقية واليونانية والصليبية سواء فى مجال التربية أو

النفس أو الاجتماع أو الإنسان أو السياسة أو الاقتصاد أو الفلسفة أو الإدارة أو الإعلام أو التاريخ أو الفنون أو الأداب أو غيرها من العلوم الإنسانية.

فلقد خدع الإنسان المسلم كما خدع سواه، واقتنع إقتناعاً ظاهراً أو خافيًا بمقولة روجها الغرب نفسه وتابعوه، مفادها أن الثقافة الغربية ثقافة عالمية، وهذا الاعتقاد بعالمية ثقافة الغرب وعلومه هو من أخطر نتائج الغزو الفكرى وأن ما نشهده اليوم من تخلف وفرقة وشحناء وقطيعة بين صفوف المسلمين على مستوى الدول والشعوب والأفراد ما هو إلا دليل قاطع صارخ على ذلك.

فقد نبتت فى بلاد المسلمين الدعوات الجاهلية الضالة، وغزتهم المبادئ الأجنبية المستوردة، والقيم الغربية المنحرفة عن منهج الإسلام، فارتفعت فى سماء المسلمين رايات ورايات، وتسربت إلى مجتمعاتهم سموم وآفات والغارة على العالم الإسلامى اليوم تستهدف الهوية وهى الخصائص والتكوين والصبغة والتفرد والتميز لهذه الأمة!

وعدونا لا يسعى فقط لطمس الهوية الإسلامية وإزالة صبغة الله بل لتكريس ذلك بإفساد تكوين الإنسان المسلم

ولقد استطاعوا فى كثير من بلاد المسلمين أن يهزوا شخصية المسلم ويزحزحوها عن أصالتها، ويزجوا بها فى مستنقع التبعية الفكرية والشعورية والسلوكية، ويعروها من قيم دينها وأخلاقياته، ويفرغوها من المحتوى الربانى الذى أخرجت به للناس وبه دخلت التاريخ.

والطبيب هو فرد من أفراد هذه الأمة أصابه ما أصابها وتأثر بما تأثر به الآخرون – ولقد تفحصت هذا المجتمع فهالنى ما رأيت، فلقد رأيت البون شاسعًا، والمسافة بعيدة جدًا بين ما أراده الإسلام للمسلمين، وما أرادوه هم لأنفسهم ورأيت على كثير من الأطباء إفراطًا فى جانب، وتفريطًا فى جانب آخر، أو اهتمامًا بأمور وتساهلاً بأمور أخرى وظهرت لى حاجة الطبيب المسلم اليوم لنفحات الهداية والتربية والتأدب، ليستطيع أن يمارس إنسانيته ويقوم بالدور الكبير الذى عهد الله إليه أن يقوم به فى هذه الحياة.

والإسلام بقواعده التشريعية الشاملة، ومبادئه التربوية الخالدة، وضع مقومات للطبيب المسلم واضحة المعالم، سهلة التنفيذ، نبيلة المقصد.

فأردت أن أبين هذه المقومات كما يريدها الإسلام ممن ينتسب إليه فدفعنى هذا إلى تتبع النصوص المتعلقة بهذه المقومات لأضع بين يدى كل طبيب دراسة أجتهد فيها أن تكون شاملة وافية تجلى تلك المقومات التى لا غناء له عنها. وتبرز تلك الصفات والأخلاق لتكون نبراسًا له، ليسموا بنفسه إلى المرتقى السامق الذى أراده له دينه الحق.

فإن شخصية الطبيب المسلم لن ترد لها عافيتها وأصالتها إلا بعودة صادقة إلى منهج الله الخالد، وبفهم عميق لحقيقة الرسالة المنوطة بالإنسان المسلم فى هذه الحياة فيتمثلها عقيدة وعبادة وسلوكًا ومنهاج حياة.

د. ماجد رمضان

الإسلام ومهنة الطب

إن مهنة الطب والتطبيب قديمة قدم الإنسان نفسه، فمنذ أن وجد الإنسان على ظهر هذه الأرض كان مدفوعًا بفطرته إلى تدبير أمور معاشه ومعاده، فاعتنى برعاية مصالح بدنه بتلك الفطرة، حتى يقوى على إكمال دوره المنوط به فى عمارة الكون، وتطوير الحياة، والعمل الجاد على القيام بدور الخلافة على أتم وجه وأكمله.

ففى أول خطواته فى هذه الحياة عالج أمراضه الظاهره التى أصابته كالجروح والكسور بعمل الأربطة والجبائر، ثم اهتدى بعد ذلك إلى استخدام النباتات فى علاجه ودوائه، أما الأمراض الخفية غير الظاهرة ولم يعرف لها سببًا ظاهرًا، فقد أرجعها إلى الأرواح الشريرة، أو غضب الآلهة فلجأ فى علاجها عن طريق السحر والشعوذة والتعاويذ والتمائم.

أما العرب فى الجاهلية فقد كان لهم حظ وافر ونصيب كبير من الطب الشعبى، الذى يعتمد على الفراسة والخبرة فى التشخيص والعلاج عن طريق الأعشاب الطبية، والكى بالنار والحجامة.

ومن أشهر أطباء العرب فى الجاهلية ثم بعد ذلك فى الإسلام الحارث بن كلدة وهو من ثقيف من أهل الطائف، وقد رحل إلى بلاد الفرس، وتعلم

الطب على أهلها، وبرع فى تشخيص الأمراض، ووصف الأدوية المناسبة، وسمى بطبيب العرب.

وكان النبى ﷺ يشير على من به علة من أصحابه أن يأتى الحارث فيتطبب عنده.

فقد روى عن سعد بن أبى وقاص أنه قال: مرضت مرضًا، فأتانى رسول الله ﷺ يعدونى، فوضع يده بين ثديى حتى وجدت بردها على فؤادى، فقال: إنك رجل مفؤد، ائت الحارث ابن كلدة أخا ثقيف، فإنه رجل يتطبب.

ولما ظهر الإسلام فى شبه الجزيرة العربية، قام على أساس من العقيدة الصحيحة، وعمل على تصحيح الأفكار الفاسدة، والخرافات الباطلة، التى أدخلتها الأديان الوثنية فعوقت نمو الطب الصحيح، وأفسدت الانتفاع به.

وكان للطب والتطبيب اهتمامًا خاصًا فى شريعة الإسلام فمن نظر فى القرآن الكريم، وجد كلمة (المرض) وما يشتق منها قد ذكرت نحو (خمس وعشرين مرة)، بعضها يتعلق بمرض الأبدان، كما ذكر القرآن كلمة (الشفاء) وما اشتق منها (ست مرات).

وقد وضح ذلك أيضًا فى كتب الحديث التى ألفت على الأبواب والموضوعات، ككتاب «الطب» فى الصحيحين وسنن أبى داود والترمذى، وابن ماجه، وفى بعضها مثل صحيح البخارى ككتاب المرض.

وعد الفقهاء تعلم الطب من فروض الكفاية، واعتبرته الشريعة الإسلامية ضرورة لازمة لحفظ النفس، وأكدوا على أن حفظ النفس من مقاصد الشريعة الإسلامية ضمن مقاصد خمسة، سموها الضروريات

الخمس وهى حفظ الدين والنفس والنسل والعقل والمال.

ومن تتبع سيرة النبى ﷺ نجده قد أمر بتعلم الطب، وأمر بتعليمه، وأمر بتلقى العلاج، وكذلك مارس النبى ﷺ الطب.

فقد أمر النبى ﷺ بتعلم وتعليم الطب كما جاء فى الحديث المروى عن أبن بكر بن سليمان بن أبى حتمة:

أن رجلاً من الأنصار خرجت به نملة (قروح تخرج فى الجنبين) فدل أن الشفاء بنت عبد الله ترقى من النملة فجاءها فسألها أن ترقيه، فقالت: والله ما رقيت منذ أسلمت، فذهب الأنصارى إلى رسول الله ﷺ فأخبره بالذى قالت الشفاء، فدعاها رسول الله ﷺ فقال لها: أعرضيها علىَّ، فعرضتها عليه. فقال: أرقيه وعلميها حفصه كما علمتيها الكتابة» أخرجه الإمام أحمد.

وأمر النبى ﷺ بتلقى الدواء كما جاء فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد فى مسنده. عن أسامة بن شريك. قال: كنت عند النبى ﷺ وجاءت الأعراب فقالوا: يا رسول الله: أنتداوى؟ فقال: نعم، يا عباد الله تداوا، فإن الله -عز وجل- لم يضع داءً إلا وضع له شفاءً، غير داء واحد، قالوا: ما هو؟ قال: الهرم.

ومارس هو ﷺ الطب كما هو معروف بالطب النبوى فقد أورد ابن القيم فى كتابه الشهير «زاد المعاد فى هدى خير العباد»، وكذلك الحافظ شمس الدين الذهبى فى كتابه (الطب النبوى)، وأيضاً علاء الدين الكحال فى كتابه «الأحكام النبوية فى الصناعة الطبية» هدى رسول الله ﷺ فى الطب.

فترسخ ذلك كله فى تشكيل عقل المسلمين وحضارتهم، فنظروا للتراث الحضارى البشرى الذى سبقهم وعاصرهم، فلم يتقوقعوا فى دائرة الذات، وينغلقوا على حدود الأنا.

بل قاموا بالنظر إلى التراث العلمى الموجود فى كل الحضارات بصدر رحب، ولم يسمحوا له بالدخول إلى عقولهم ما لم يكن يحمل جواز السفر الذى يتيح له المرور. فكل نتاج الآخرين بمثابة حقول مفتوحة لهم يجولون فيها، فيأخذون ويرفضون، وينتقون، ويمحصون ويختبرون ويعزلون ويستبعدون ويفصلون.

فعرفوا من خلال تجوالهم ما الذى ينسجم مع المسلم ويزيده دمًا وحياه وما الذى يحمل جراثيم المرض فيرفض هذا ويأخذ هذا.

فاقتبس الأطباء المسلمون عن الحضارات السابقة النظريات الطبية التى تشكل قاعدة ثابتة لعلاج المرض، إلا أن الأطباء المسلمين ركزوا على الأمور العملية بدلاً من النظرية فى العلاج الطبى.

فقاموا بكثير من الاكتشافات الطبية وأحرزوا تقدمًا كبيرًا فى فن الاستطباب، فهم أول من استخدم المخدر (المرقد) فى الطب والعمليات الجراحية مستخدمين الاسفنجة المخدرة من محلول الأفيون يستنشقها المريض.

كما اكتشفوا العديد من الأمراض وقاموا بتشخيصها فاكتشف ابن سينا المرض المعروف اليوم بالأنكلستوما وهى الدودة التى وصفها بالمستديرة.

واكتشف ابن النفيس الدورة الدموية الصغرى بعد تشريح القلب، كما ألف كتابًا فى علم التشريح.

واهتم أبو القاسم الزهراوى بعلم الجراحة، ووصف أكثر من مائتى آلة جراحية مع صورها فى كتابه (التصريف لمن عجز عن التأليف) الذى يعد من أعظم الإسهامات فى هذا الموضوع فى القرون الوسطى، واستعمل خيوط الحرير فى خياطة العمليات الجراحية لأول مرة.

وكان الرازى قد استعمل الخيوط المصنوعة من أمعاء الحيوانات لأول مرة، وكان أول من ميز بين مرض الجدرى والحصبة، وذلك فى كتابه (فى الحصبة والجدرى).

أما كتابه الكبير «الحاوى» فيعتبر موسوعة طبية يلخص فيها معارف الأغريق والفرس والهنود فى الطب. ويضيف بعدها ملاحظاته الشخصية.

وألف ابن الجزار القيروانى أول كتاب فى طب الأطفال وقد استمرت عنايتهم بطب الأطفال حتى وصلوا إلى اكتشاف مصلاً ضد الجدرى الذى كان معروفًا فى المغرب العربى.

أما فى طب العيون فهناك على بن عيسى، وعمار الموصلى وكلاهما عاش فى النصف الأول من القرن الحادى عشر. وإلى الأطباء المسلمين يعود اختراع الأدوات الجراحية، ونظام فحص المريض بشكل كامل، ووصف العديد من الحالات الطبية والأمراض، كما كانوا يملكون موهبة نظرية وعملية فى تصنيف علوم الطب، وتقديم نتائجهم فى كتاب عملى واضح للطلاب والأطباء معًا.

ومن المهم الإحاطة بمدى انتشار الأطباء فى المجتمع الإسلامى فقد جرى امتحان لأطباء بغداد فى خلافة المقتدر عام ٥١٣ هـ فأجيز ثمانمائة ونيف وستين طبيبًا غير أطباء دار الخلافة المعروفين وهو عدد كبير فى ذلك العصر.

غير أن أكبر انجاز طبى للمسلمين يتجلى فى انشاء المستشفيات وإداراتهم إياها على أكمل وجه وفق نظام دقيق لا يزال يعمل به حتى الآن.

فقد انشئت المستشفيات فى الإسلام على عهد رسول الله ﷺ كما قال ابن اسحاق فى سيرته يوم أصيب سعد بن معاذ يوم الخندق، فضرب له النبى ﷺ خيمة فى مسجده وجعل عليه امرأة من أسلم يقال لها رفيدة، كانت تداوى الجرحى، وتحبس نفسها على خدمتهم.

وظهرت المستشفيات بصورة متكاملة منذ خلافة الوليد بن عبد الملك (٨٦-٩٨هـ) بدمشق، وكانت متخصصة بالأمراض المعدية لوقاية المجتمع ومساعدة العجزة والمرضى.

ثم انتشرت بعد ذلك فى أرجاء العالم الإسلامى فى العصر العباسى واشتهر منها المستشفى العضدى ببغداد (٣٧٠ هـ).

والمستشفى النورى بدمشق (٥٤٩ هـ)، والمستشفى المنصورى بالقاهرة (٦٨٣هـ)، ومستشفى مراكش زمن دولة الموحدين.

وكانت هذه المستشفيات منظمة تنظيمًا يقرب من تنظيم المستشفيات فى عصرنا.

وقد ألحق المسلمون المعاهد الطبية بالمستشفيات مما نجم عنه تقدم الطب

السريرى (الإكلينيكى)، وقد ذكر المستشرق الألمانى (ماكس مايرهوف) ٤٣ مؤسسة طبية تعليمية مع المستشفيات المنشرة من فارس إلى مراكش.

واهتم الحكام والخلفاء بعلوم الطب فنشطت حركة الترجمة وظهر فى عصر المأمون المترجم حنين بن اسحاق العبادى، وكان المأمون يعطيه من الذهب زنة ما ينقله إلى العربية من العلوم الطبية واعترف العالم الغربى بجهود المسلمين فى الطب وظهر ذلك فى الموسوعات العلمية، وفى صورتى الرازى وابن سينا المعلقتين فى كلية الطب بجامعة باريس، وفى إطلاق اسم الرازى على قاعة من أفخم قاعات جامعة بريجستون الأمريكية.

ثقافة محزنة وواقع أليم:

فلما أصاب الوهن الحضارى الأمة المسلمة، وغاب الحس الدينى عن عقول أبنائها، حتى وصل الأمر ببعض العقول الكليلة من المسلمين إلى اعتبار هذه التخصصات من علوم الكفار، التى تصرف الإنسان عن التعبد إلى الله بطلب العلم الشرعى، وظنوا أن هناك تعارضاً بين العلم والدين.

وقد سيطر هذا المناخ المغشوش على العقل الإسلامى ردحًا من الزمن، حتى فاتنا الركب، ولا تزال رواسب هذا المناخ حاضرة فى نفوس الكثير حتى اليوم.

ولعل الأغرب من ذلك أن يعتقد البعض، بأن الله جعل الكفار فى خدمتنا، لذلك فهم يتولون اكتشاف العلوم الطبية الحديثة، أما نحن فنتفرغ للعلوم الشرعية.

ومرجع ذلك حصر مفهوم (العمل الصالح) فى العبادات فقط،

وانحساره من ميادين العلم المختلفة والكشف العلمى، مما أدى إلى حصر المثل العليا الإسلامية فى السلوك الفردى الشخصى.

ومع أن الإسلام لم يرد لنا يومًا أن ننعزل عن الحياة، ونتخذ إزاءها مواقف السلب والفرار، فالإسلام حركة وجهاد دائمة فلقد دعانا إلى النزول إلى الساحة من أول لحظة. وهذا ما فقهه وعلمه رجال الغرب وعلماؤه فتمثلوه فى حياتهم وواقعهم.

فكان أول من أسس عيادة طبية من أجل التبشير هم الأمريكيون وقد افتتحوها فى سيواس بتركيا عام ١٨٥٩م، وهكذا نظر الأمريكيون من ذلك الحين إلى الطب على أنه معين على التنصير، واعتبروه مشروعًا مسيحيًا. وعلى هذا قال الطبيب بول هايسون فى كتابه «الطب فى بلاد العرب»:

«ان المبشر لا يرض عن إنشاء مستشفى ولو بلغت منافع هذه المستشفى منطقة عمان بأسرها، لقد وجدنا نحن فى بلاد العرب لنجعل رجالها ونساءها نصارى».

ولا ريب فى أن الطبيب يستطيع أن يصل إلى جميع الطبقات من الناس، حتى أولئك الذين لا يخالطون غيرهم، ولذلك قال المبشرون «إن بإمكان الطبيب المبشر أن يصل بتبشيره إلى جميع الطبقات بواسطة المرضى الذين يعالجهم. وأن بإمكانه أن يغير الذين حوله. ويجعل منهم نصارى حقيقيين، أو يترك فى نفوسهم أثرًا عميقًا على الأقل».

ومثال آخر: العالم اليهودى الذى اخترع مادة متفجرة جاءت كثمرة لتخصصه العلمى، كان إلى جانب هذا التخصص العلمى الدقيق يتمتع

بثقافة توراتية، ورؤية دينية توجه ملكاته وتوظف تخصصاته للعمل على تحقيقها، وذلك فى الوصول إلى أرض الميعاد وإعادة بناء الهيكل، إن لم يكن جزءً من توظيف مخترعه العلمى من خلال تلك الثقافة، لقد فرض على الحلفاء فى الحرب العالمية أنه سوف لا يبوح لهم بسر المخترع الذى يمكنهم من النصر ما لم يأخذ عليهم العهد فى تأييد حق يهود فى فلسطين.

فأين هذا من بعض مسلمى اليوم؟ حين يرون بأن أمر الدعوة إلى الله يتعارض مع متابعة تخصصه العلمى. وكأن الجهل وعدم النبوغ العلمى أصبح ضروريًا لنجاح الدعوة الإسلامية أليس هذه حالة محزنة، وثقافة محزنة، وواقع أليم.

نكون أو لا نكون؟!

ذلك هو السؤال.

لقد خصت الأمة المسلمة بالشهادة على الناس، والقيادة لهم ﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا** ﴾ [البقرة: ١٤٣]

لا بسبب اللون، أو القوم، أو الجنس، وإنما بسبب ما تؤمن به وتمتلكه من القيم المعصومة فى الكتاب والسنة، والتى تشكل لها أدوات التصويب، وتكسبها القدرة على اكتشاف مواطن الخلل وتحديد مواقع القصور، وتبين أسباب التقصير.

ولقد آن لنا نحن المسلمين أن ندرك أن الحضارة المعاصرة بتقنياتها ونظمها أصبحت تشكل بحق – تحديًا مباشرًا للإنسان المسلم والتى تحمل

ثناياها تعارضاً جذرياً مع أمر الله وشرعه.

وتلك محطة لا يستطيع المسلم أن يجتازها إلا بحرص شديد على ذاتيته وتمسك تام بخصوصيته.

والحرص على الذاتية والتمسك بالخصوصية، تتمثلان فى المحافظة على القيم والمبادئ والأسس النابعة من عقيدة التوحيد، التى يجب أن يلتزم بتطبيق تعاليمها، ويصوغ حياته على منهجها.

إن على الطبيب المسلم أن يعمل على اللحاق بمسيرة الخصم، والسبق عليه، وعليه أن يعرف كيف (يسارع) وكيف (يسبق) وسواء شئنا أم أبينا - فنحن- أولاً وأخيراً مسئولون عن تخلفنا الحضارى. ولن ينقذنا إلا فعلنا الخاص، ولن يعيدنا إلى موقعنا المتقدم إلا تحملنا الكامل لمسئوليتنا. والمفاتيح عندنا. أولاً وأخيراً. فإن لم نصل اليوم الذى نبنى فيه «مختبراتنا» ونشغلها «بعقولنا» ونصنع سلاحنا ونستخدمه بأيدينا، إن لم نُعِد تشكيل عقولنا لكى تعمل كما أراد لها الإسلام، وأن نصوب قيمنا وسلوكنا وفق ما أمرنا به الإسلام، فلن تكون لنا خارطة أ و مكان فى العالم الذى يعاد تشكيله الآن.

ذلك هو التحدى الحقيقى الذى يقف قبالتنا صباح مساء وهذا هو طريق الاستجابة المرسوم فى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

وهذا هو الجواب

مقومات الطبيب المسلم

الحديث عن أخلاقيات مهنة الطب ومقومات الطبيب المسلم وما يجب أن يتمتع به من كريم الصفات، ومحاسن الأخلاق ليس وليد اليوم، وإنما نشأ منذ وجد الطبيب أو المعالج.

وكان أول ميثاق مكتوب على يد الطبيب أبقراط (٤٦٠-٤٥٧) قبل الميلاد بقسمه المشهور الذى يقسم عليه الأطباء قبل ممارستهم لمهام وظيفتهم.

وعند انشاء أول مدرسة للطب فى غرة ذى الحجة ١٢٤٢ هجرية فى زمن محمد على باشا وكان ذلك عام ١٨٢٦م تم وضع قسمًا للأطباء أو عهدًا يتعهدون بتنفيذ بنوده وينص على ما يلى:

* أقسم بالله العظيم ونبيه الكريم محمد ﷺ على أن أكون أمينًا حريصًا على شروط الشرف والبر والصلاح فى تعاطى صناعة الطب وأن أسعف الفقراء مجانًا ولا أطلب أجرة تزيد على أجرة عملى وأنى إذا دخلت بيتًا فلا تنظر عيناى ماذا يحصل فيه ولا ينطق لسانى بالأسرار التى يأتمنونى عليها، ولا استعمل صناعتى فى إفساد الخصال الحميدة ولا أعاون بها على الذنوب ولا أعطى سمًا البتة ولا أدل عليه، ولا أشير به ولا أعطى

دواءً فيه ضرر على الحوامل، ولا إسقاط لهن وأكون موقراً وحافظًا للمعروف مع الذين علمونى مكافئًا لأولادهم بتعليمى إياهم ما نتعلمه من أبائهم فما دمت حريصًا على عهدى وأمينًا على يمينى فجميع الناس يعتبروننى ويوقروننى وإن خالفت ذلك فأكون المرذل المحتقر.

والله شهيد على ما أقول

(قد تم العهد)

وتطور هذا القسم حديثًا وسمى بلائحة أداب المهنة محددة الواجبات المطلوب من الطبيب القيام بها، ذاكرة الصفات والسجايا التى يجب أن يلتزم بها الطبيب فى علاقته بالمجتمع وبزملائه من أطباء، وواجباته تجاه المريض.

وبالرغم بأن من وضع هذه اللوائح والمواثيق والعهود لم يدر بخلده أن تتفق مع شرائع الإسلام أو لا تتفق. إلا أنها تتفق فى بعض أو كل بنودها مع الإسلام.

ومن الملاحظ فى هذه المواثيق والعهود واللوائح اهتمامها بالأخلاق، وذلك لأن الأخلاق ليست من مواد الترف التى يمكن الاستغناء عنها بل هى أصول الحياة التى يرتضيها الدين ويحترم ذويها.

فقد يكون الطبيب مخلصًا فى عمله متقنا له، ولكنه يفسد عمله خلق ذميم.

والإسلام يهتم بالأخلاق اهتمامًا عظيمًا وعن أسامة بن شريك قال: كنا جلوسًا عند النبى ﷺ كأنما على رؤوسنا الطير ما يتكلم منا متكلم. إذ

جاءه أناس فقالوا:

من أحب عباد الله إلى الله تعالى؟

فقال أحسنهم خلقًا [الطبرانى]

وفى رواية «ما خير ما أعطى الإنسان؟ قال خلق حسن».

وعن عبد الله بن عمرو: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ألا أخبركم بأحبكم إلى وأقربكم منى مجلسًا يوم القيامة؟ فأعادها مرتين أو ثلاثًا - قالوا: نعم يا رسول الله قال: أحسنكم خلقًا. [الترمذى]

والمعروف أن الخلق لا يتكون فى النفس فجاءة، ولا يولد قويًا ناضجًا، بل يتكون على مكث وينضج على مراحل.

فالأخلاق ملاك الفرد الفاضل، وقوام المجتمع الراقى والقرآن لم يثن على خير الرسل محمد ﷺ بأكثر من أن قال ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾

[القلم: ٤]

والنبى يلخص رسالته فلا يزيد أن يقول: «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**».

ويقول ابن القيم «**الدين هو الخلق - فمن زاد عليك فى الخلق زاد عليك فى الدين**».

وهذا مصداق ما جاء فى الحديث النبوى: «أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا». [الترمذى]

وإذا كانت الأخلاق فى الإسلام تقوم على مبدأ « التحلى » بالفضائل و« التخلى » عن الرزائل، وعلى أساس الالتزام بالمنهج الربانى فى التربية النفسية والخلقية، فجدير بالطبيب المسلم أن يتخلى عن كل الرزائل التى نهت الشريعة الإسلامية عنها، وأن يتحلى بكل الفضائل التى أمرت الشريعة بها.

وأن يلتزم المبادئ الخلقية التى دعا إليها القرآن العظيم وحض عليها الرسول ﷺ.

وبهذا يكون الطبيب المسلم قدوة صالحة للناس يتأثرون به ويأخذون عنه ويمسى كأنه شامة فى المجتمع.

ولقد تأمرت ظروف كثيرة على مهنة الطب والطبيب لإضعاف مستواهم والإقلال من شأنهم، والطبيب هو إفراز هذا المجتمع فيتأثر بما يتأثر به الجميع من قيم سلبية، وسلوكيات مرفوضة، وأفكار منحرفة وتصورات مغلوطة.

وقد أساء بعض الأطباء إلى مهنتهم وأنفسهم إساءة بالغة الشدة، وقد تتابعت هذه الإساءات فى الأونة الأخيرة واتسع نطاقها. وفشت فى مجتمع الأطباء قيم مرزولة وسلوكيات مرفوضة، ونماذج رديئة تحتاج إلى تقويم وإصلاح ليعود للثوب الأبيض بهائه ورونقه.

وفى الصفحات التالية بعض من الصفات والسجايا التى يجب على الطبيب أن يتخلق بها، ليستأنف دوره ويقوم بحمل أعباء أمانة الاستخلاف، ويؤدى رسالته مستثمراً إمكاناته الروحية، والذهنية، والمادية فيسترد دوره المعقود فى قيادة المجتمع.

أولاً: سليم العقيدة:

١- مؤمن بالله ورسالاته، وكتبه واليوم الآخر وحقيقة هذا الإيمان المستقر فى القلب، تتحرك من فورها، لكى تحقق ذاتها فى عمل صالح، فإن حقيقة التصديق بالدين، ليست كلمة تقال باللسان، إنما هى تحول فى القلب، يدفعه إلى الخير والبر بإخوانه فى البشرية، المحتاجين إلى الرعاية والحماية والله لا يريد من الناس كلمات، إنما يريد منهم معها أعمالاً تصدقها وإلا فهى هباء لا وزن لها عنده ولا اعتبار.

٢ - يعتقد أن لكل أجل كتاب

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٤].

﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلاً ﴾

[آل عمران: ١٤٥].

٣ - يعتقد أن الله كما كتب الأسباب، وكما قدر النتائج، قدر المقدمات، وأن الأخذ بالأسباب لا ينافى فى القدر بل هو من القدر أيضاً.

ولهذا حين سئل الرسول ﷺ عن الأدوية والأسباب التى يتقى بها المكروه: هل ترد من قدر الله شيئًا كان جوابه الفاصل:

«هى من قدر الله» (رواه أحمد وابن ماجه والترمذى).

ولما انتشر الوباء فى بلاد الشام قرر عمر بمشورة الصحابة العدول عن

دخولها والرجوع بمن معه من المسلمين، فقيل له: أتفر من قدر الله يا أمير المؤمنين؟

قال نعم: نفر من قدر الله إلى قدر الله.

أرأيت إن نزلت بقعتين من الأرض، إحداهما مخصبة والأخرى مجدبة، أليس إن رعيت المخصبة رعيتها بقدر الله، وإن رعيت المجدبة رعيتها بقدر الله؟!

وسنن الله فى كونه وشرعه تحتم علينا الأخذ بالأسباب كما فعل أقوى الناس إيماناً بالله وقضائه وقدره وهو رسول الله الذى قال:

«فر من المجذوم فرارك من الأسد».

«ولا يوردن ممرض على مصح» [رواهما البخارى].

٤ - يعتقد أنه لا يملك الشفاء، ولا يستطيع أن يطيل عمر المريض، ولا يستطيع أيضاً أن ينقص عمره، فإن الأمور والأعمار مقدورة.

ولا أحد غير الله القادر الأحد يستطيع أن يُغير ما سبق فى علم الله.

وصدق القائل:

إن الطبيب له علم يدل به
ما دام فى أجل الإنسان تأخير
فإذا انقضت أيام مهلته
حار الطبيب وخانته العقاقير

٥ – يعتقد أن الشافي هو الله، وأن الله هو الفعال لكل شيء، وأنه فعال لما يريد، وأنه إذا أراد شيئًا فلا راد لإرادته، وأنه إذا قضى أمراً فلا رد لقضائه. وأن إرادته وقضاءه لا يتعلقان بالأسلوب، وإنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون.

فيوجه المريض أن يلجأ إلى الله الذى لا ملجأ منه إلا إليه فيسأل الله الشفاء.

فكما يقول القائل:

ذهبت أناجى طبيب الورى

وروحى تناجى طبيب السماء

طبيبين: ذاك ليعطى الدواء

وذاك ليجعل فيه الشفاء

وقد قال الله تعالى:

﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [النحل: ٦٢].

ولذلك قال أبو الأنبياء إبراهيم صاحب الدين الحنيف:

﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ [الشعراء: ٨٠].

وقد روى فى أثر إسرائيلى:

أن إبراهيم الخليل قال: يا ربِّ ممن الداء؟ قال: منى. قال: فممن الدواء؟ قال: منى. قال: فما بال الطبيب؟

قال: رجلُ أُرسل الدواء على يديه.

فالشافى هو الله.

٦ – يعتقد أنه إذا مرض إنسان، ووصف له الطبيب استعمال دواء. أو إجراء جراحة،أو غير ذلك فقام به ونفذه فليس ذلك خروجاً عن التوحيد إنما ينافى التوحيد اللجوء إلى أسباب خفية لم يشرعها الله، لرفع البلاء بعد وقوعه أو للوقاية منه قبل وقوعه فيما زعموا.

ومن ذلك لبس حلقة من المعدن، أو وضع خيط يربط بالعضد أو ما شابه ذلك من أعراف وتقاليد.

روى الإمام أحمد عن عمران بن حصين. أن النبى ﷺ أبصر على عضد رجل حلقة، فقال ويحك: ما هذه؟

قال: اتخذتها من الواهنة. قال رسول الله ﷺ ألا إنها لا تزيدك إلا وهناً. انبذها عنك فإنك لو مت وهى عليك ما أفلحت أبداً.

ومن هذا الباب تعليق التمائم، والرقى ما كان منها استغاثة بغير الله تعالى:

«إن الرقى والتمائم والتولة شرك». [رواه أحمد والترمذى]

٧ – مؤمن بعدل الله فيما قسم من أرزاق، وبحكمته فيما وزع من مواهب، وبفضله ورحمته فيما وهب لعباده من حظوظ فهو راضى بما قسم الله له من رزق، وما قدر له من مواهب فقد قال الله تعالى:

﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ

﴿مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢، ٢٣].

﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨].

﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦].

﴿وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لاَّ تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ [العنكبوت: ٦٠].

ويقول رسول الله ﷺ:

«يا أيها الناس اتقوا الله وأجملوا فى الطلب، فإن نفسا لن تموت حتى تستوفى رزقها، وإن أبطأ عنها، فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب، خذوا ما حل، ودعوا ما حرم» [رواه ابن ماجه].

٨ – يعتقد أن سلامة القلب من الضغن والحسد أول ما يتصف به المؤمن، ولا يكمل إيمانه حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه، ويكره له ما يكره لنفسه، فهو لا يفرح بالمصيبة تنزل بغيره، ولا يحزن للنعمة يسوقها الله إلى غيره. لا يربط بين حظه من الحياة ومشاعره مع الناس، ذلك أنه ربما فشل حيث نجح غيره، وربما تخلف حيث سبق آخرون. فمن الأثره أن يتمنى الخسارة لغيره. لا لشيء إلا أنه هو لم يربح مثلهم فبعض القلوب تغلى كمراجل من الحقد فى أنفسهم، لأنهم ينظرون الدنيا فيجدون ما يتمنونه لأنفسهم قد فاتهم وامتلأت به أكف أخرى.

والمؤمن لا يحسد، لأن همته منوطة بما هو أرفع وأبقى من الدنيا. وقد حرم الإسلام الحسد. لأنه جمرة تتقد فى الصدر فتؤذى صاحبها وتؤذى الناس.

وقد قال رسول الله ﷺ:

«**إياكم والحسد، فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب**» [أبو داود].

والحاسد شخص جاهل بربه وبسنته فى كونه وكان أجدى به أن يتحول إلى ربه يسأله من فضله فإن خزائنه ليست حكراً على واحد بعينه، ثم يستأنف السعى والجد فى الحياة من جديد.

ثانياً: مخلص فى عمله متقن له

عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – قال سمعت رسول الله – ﷺ – يقول:

«**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل أمرىء ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله. فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو أمرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه**» [رواه البخارى ومسلم].

فعملك أيها الطبيب مرتبط بالنية، إذا صحت صح العمل، وإذا فسدت فسد وضاع العمل وباء الجهد بالخسران والنية وحدها تجعله عملاً للبناء أو عملاً للهدم والتخريب.

وأنت أيها الطبيب المسلم

يا من رغبت فى الحفاظ على حياة الإنسان باسم الله وعزمت على رعايتها لتصون الإنسان من الهلاك وبذلت من وقتك وجهدك وبدنك – ألا تعتبر نفسك مفرطا إن أنت أهملت قلبك. تلك المضغة التى إن صلحت صلح الجسد كله، أو فسدت فسد الجسد كله، ولن تصلح إلا بالنية الصالحة، ولن يبقى الضمير حيًا يقظًا حارسًا لك إلا بالنية.

إن الله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا له يقول تعالى فى الحديث القدسى:

«أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك معى فيه غيرى تركته وشركه».

فضع بواعثك الكامنة فى قلبك التى تدفعك إلى العمل تحت مجهر مكبر للاختبار.

فمن المؤسف أن تجد البعض لا يفقهون إلا منطق المال والدرجة الترقية، ويربطون رضاهم وسخطهم وفتورهم ونشاطهم بثناء أو بروز أو شكر.

فلو أنك أنقذت حياة رجل - أتراك تنتظر منه الشكر أو الأجر أو الثناء.

فالواجب على الطبيب المسلم أن يجعل عمله الذى يقدمه للآخرين خالصا لوجه الله، وأن يبعد عن مقاصده كل دخل.

والعمل الذى يقبل ويحترم هو الذى يبذله صاحبه بدوافع الخير المحض. لا يطلب عليه ثناء ولا شكر، ولا أجرًا محدداً يتوقف عليه بذله وعطاؤه.

فالجراحة التى يجريها طبيب مسلم هى هى التى يجريها طبيب يهودى أو شيوعى، ويمكن الحكم عليها أو لها من الناحية العلمية الخالصة. ووصفها بالحسن أو القبيح لا مرجع له إلا هذه الأصول الفنية المتدارسة بين أجناس البشر.

والفارق بين صدور هذه الجراحة من رجل مسلم أو بين صدورها من شخص آخر، أن المسلم لا تفوته فى أى عمل نية الخير، ولا تنفك عنه صلته بالله، وقصد وجهه فيما يأتى ويترك. إن هذا التعلق بالكمال المطلق، والإحسان المبرأ، أهم ما يطلبه منك دينك حين تسدى إلى مريض علاجًا ناجعًا.

قدم عملك عشقا لصنائع المعروف وابتغاء ما لدى الله من مثوبة.

«ولا تقولوا هذه لله ولوجوهكم، فإنها لوجوهكم وليس لله منها شيء» [رواه البيهقى].

فعليك أيها الطبيب المسلم

أن تتوجه بحركات قلبك لله رب العالمين لا تنتظر ثناء ولا إعجابًا ولا بروزًا ولا ظهورًا ولا شكورًا.

والقرآن يربى أتباعه على الإتقان فى كل شيء، والاتقان يقابل الجودة، والله الذى له المثل الأعلى خلق الإنسان فى أحسن تقويم معتدل الخلق، متناسب الأعضاء متسقًا مع البيئة التى حوله قادرًا على العيش فيها واستغلالها.

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [التين: ٤].

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾﴾ [التغابن: ٣].

﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾﴾ [الانفطار: ٦ – ٨].

وقدمت السنة معالم كثيرة تدل على أهمية الاتقان.

«إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح» [رواه مسلم].

والإحسان مرتبة عليا فوق الإسلام والإيمان وفيها تتفجر الطاقات الإنسانية، وتتفتح على معالم الغيب بتركيز عال من العبادة والرقابة واليقين.

«الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه - فإن لم تكن تراه فإنه يراك» [رواه البخارى].

والطب لا يؤتى ثماره إلا إذا تحققت من خلاله معانى الإحسان والاتقان.

فالطب فى لغة العرب يقال على معان منها: الإصلاح، يقال: طببتُه. إذا أصلحته.

ويقال: له طب بالأمور - أى لطف وسياسة.

قال الشاعر:

وإذا تغير من تميم أمرُها

كنت الطبيب لها برأى ثاقب

ومنها: الحذق

قال الجوهرى: كل حاذق طبيب عند العرب.

وقال أبو عبيد: أصل الطب: الحِذْق بالأشياء والمهارة بها.

ويقال للرجل: رجل طبيب أى حاذق، وسمى طبيباً لحزقه وفطنته.

والطب هو عين الحكمة، والحكمة تعنى العلم المقترن بأسرار الأشياء، وغاياتها، وتعنى باتباع أحسن الطرق وأفضل الأساليب للوصول للغاية المرجوة.

وتعنى بإنزال القول على موضعه.

والطب من أشرف العلوم، وذلك لأن موضوعه الإنسان والعلم يشرف بشرف موضوعه.

والطبيب هو الأقدر على إنزال القول على موضعه حين يعقد الموازنات بين المصالح والمفاسد.

ولذلك كان من الطبيعى أن يسمى الطبيب بالحكيم فى العهود الإسلامية لأنه يتصف بالخلق الكريم، ويمارس الحكمة والفلسفة والفقه والأدب ومختلف فروع المعرفة.

فالواجب على الطبيب المسلم أن يتقن العلم الذى اختص فيه كل الاتقان، فلا يدخر وسعا فى الإحاطة بكل ما كتب عنه فى شتى اللغات إن استطاع، ويبقى دوما يغذى عقله بالجديد من مستحدثات ذلك العلم بالمطالعة الدائبة، والإطلاع المستمر فى شتى وجوهه وألوانه ذلك أن الطبيب المسلم الواعى الحق فى هذا العصر هو الذى يحقق نجاحًا علميًا عاليًا. يكسبه فى أعين الناس مهابة وإجلالاً وتقديراً، ويرفعه إلى أعلى مراتب المجد والشرف والتكريم..

ثالثاً: قمة فى تخصصه المهنى

يقول النبى ﷺ:

«**طلب العلم فريضة على كل مسلم**» [حديث حسن رواه ابن ماجه].

ومن ثم كان فرضا عليه أن يقبل على تعهد عقله بالعلم والمعرفة تعهداً دائماً لا يقف ما دامت أنفاس الحياة تتردد فى صدره ونبضها يدفع الدم فى عروقه.

وحسبك أيها الطبيب المسلم أن تكون من العلماء الذين رفع الله شأنهم فخصهم بخشيته وتقواه فقال ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**(٢٨)﴾ [فاطر: ٢٨].

والطبيب المسلم هو الذى لا يكتفى بدرجة البكالوريوس فقط طلباً للمورد المالى، أو العيش الرخى، ثم يقف عن المطالعة والاستزادة فى كنوز المعرفة. بل عليه أن يستمر فى المطالعة ويزداد كل يوم علماً عملاً بقوله تعالى ﴿**وقل رب زدنى علماً**﴾ [طه: ١١٤].

وقد روى الإمام ابن عبد البر عن ابن أبى غسان قال «**لا تزال عالمًا ما كنت متعلما، فإذا استغنيت كنت جاهلاً**».

وسئل الإمام أبو عمرو بن العلاء فقيل له: حتى متى يحسن بالمرء أن يتعلم؟ فقال: ما دام تُحسن به الحياة. فما بالك... مع إشراقة شمس يوم جديد.. تجد الجديد فى الطب ما بين علاج جديد أو دواء جديد أو جهاز جديد، فإن لم يتابع الطبيب تلك الثورة المعلوماتية والبحثية صار متخلفا جاهلاً عن مستحدثات العصر.

ويكون مقصراً فى حق مرضاه – مضيعًا الأمانة التى فى عنقه. وليس من المفروض أن يكون الطبيب المسلم ملمًا بكل شىء، عالمًا بما دق من علوم الطب وفروعه وتخصصاته، لكنه بحكم مهنته معرض لأن يسأله المريض. فمن الأمانة العملية أن يمتنع عن الإجابة إذا كان لا يعلم، أو يستمهل المريض حتى يسئل من هو أعلم منه بهذا الأمر، أو يرجع إلى مراجعه وكتبه إن لزم الأمر:

قال الله تعالى: ﴿ **وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ** (٧٦) ﴾ [يوسف: ٧٦].

وقال ﷺ: « رحم الله أمرًا عرف قدر نفسه ».

وعليه أن يستشير غيره من الأطباء الذين لهم خبرة بالمرض الذى يعالجه، إن كان يجهل تشخيصه، أو بطريقة معالجته لقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ **فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ** (٤٣) ﴾ [النحل: ٤٣].

وعليه أن يتنحى عن معالجة المريض ليتركها لمن يكون أقدر عليها من الأطباء، إن كان لا يأنس من نفسه القدرة على ذلك فقد روى عن زيد بن أسلم.

« أن رجلاً فى زمن رسول الله ﷺ أصابه جرح، فاحتقن الدم، وأن الرجل دعا رجلين عن بنى أنمار، فنظرا إليه، فزعم أن رسول الله ﷺ قال لهما: أيكما أطب؟ فقال: أوفى الطب خير يا رسول الله.

فزعم زيد أن رسول الله ﷺ قال: «**أنزل الدواء الذى أنزل الأدواء**».

ففى هذا الحديث ما يدل على أنه ينبغى الاستعانة فى كل علم وصناعة بأحذق من فيها، فإنه إلى الإصابة أقرب. فالطبيب الحذق الماهر هو

الذى يفرق بين ما يضر بالإنسان جمعه، أو يجمع فيه ما يضره تفرقه، أو ينقص منه ما يضره زيادته، أو يزيد فيه ما يضره نقصه.

ومهمة الطبيب أن يجعل علاجه وتدبيره دائراً على ستة أركان:

حفظ الصحة الموجودة، ورد الصحة المفقودة بحسب الإمكان، وإزالة العلة أو تقليلها بحسب الإمكان، واحتمال أدنى المفسدتين لإزالة أعظمهما، وتفويت أدنى المصلحتين لتحصيل أعظمهما. فعلى هذه الأصول الستة مدار العلاج، وكل طبيب لا تكون هذه مهمته فليس بطبيب.

وروى أبو داود والنسائى وابن ماجة، من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه، عن جده، قال قال رسول الله ﷺ «**من تطبب، ولم يعلم منه الطب قبل ذلك، فهو ضامن**».

وقال الخطابى:

لا أعلم خلافا فى أن الطبيب إذا تعدى - فتلف المريض كان ضامنا.. والمتعاطى علما أو عملاً لا يعرفه متعد.

فالطبيب الجاهل.. إذا تعاطى علم الطب وعمله، ولم يتقدم له به معرفة. فقد هجم بجهله على إتلاف الأنفس وأقدم بالتهور على ما لم يعلمه، فيكون قد غرر بالعليل فليزمه الضمان لذلك، وهذا إجماع من أهل العلم.

والطبيب المسلم هو الطبيب الذى يرجع فى قيمه وتعاليمه وأصوله ووسائله إلى معتقداتنا الإسلامية النابعة من الكتاب والسنة، قال الله تعالى

مخاطبا النبى ﷺ ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ (٨٩)﴾ [النحل: ٨٩].

فأحرى بالطبيب المسلم أن يعرف فقه مهنته، ويتعرف على الأحكام التى تتعلق بمداوة المرضى، وأحكام هذا التداوى وما للمرضى من رخص وتخفيضات بالنسبة للفرائض والعبادات، أو بالنسبة للمحرمات والمنهيات.

وعليه أن يتعرف على الاجتهادات الفقهية، لما استحدث فى حياتنا الحديثة والمعاصرة، فقد وقعت أشياء كثيرة وخطيرة فى عالم المرض والطب لم يعرفها فقهاؤنا السابقون، بل لم تخطر لهم ببال، فكان على الفقه المعاصر أن يتناولها ويبين الحكم الشرعى فيها وفق الأدلة والأصول الشرعية ومن تلك القضايا المهمة.

١ – زراعة الأعضاء.

٢ – نقل الأعضاء (التبرع – البيع).

٣ – العلاج بالمحرمات.

٤ – الامتناع عن علاج الحالات الميئوس منها (قتل الرحمة).

٥ – علاج المرأة للرجل والرجل للمرأة.

٦ – جراحات التجميل.

٧ – نقل الدم.

٨ – تحويل الجنس إلى جنس آخر.

٩ – العلاج بالقرآن والسحر.

١٠ – تحديد أو تنظيم النسل، والإجهاض، والختان، وإعادة غشاء البكارة.

١١ – العقم وتأجير الأرحام، وأطفال الأنابيب.

١٢ – الهندسة الوراثية والاستنساخ.

رابعاً: صادق فى قوله وعمله

إن من مقومات الطبيب المسلم صدق الحديث، ودقة الأداء، وضبط الكلام. لأن هدى الإسلام الذى تغلغل فى كيانه علمه أن الصدق رأس الفضائل، وأس مكارم الأخلاق.

فهو يتحرى الصدق فى أقواله وأفعاله.

فقد سئل رسول الله ﷺ:

أيكون المؤمن جباناً؟ قال نعم! قيل له: أيكون.

المؤمن بخيلاً؟ قال نعم! قيل له: أيكون.

المؤمن كذاباً؟ قال: لا. [رواه مالك].

ومن هنا كان الاستمساك بالصدق فى كل شأن، وتحرية فى كل قضية والمصير إليه فى كل حكم سمة وصفة وصيغة ثابتة فى سلوك الطبيب المسلم، مصداقًا لقول رسول الله ﷺ: «**إن الصدق يهدى إلى البر وإن البر يهدى إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقًا، وإن الكذب يهدى إلى الفجور، وإن الفجور يهدى إلى النار، وإن الرجل ليكذب**

حتى يكتب عند الله كذابًا» [متفق عليه].

والطبيب قد يكذب فى بيان قدراته ومدى علمه وكثرة شهاداته وخبراته. فمن الصدق ألا يستغل الطبيب سذاجة الآخرين فى كسب مضاعف، أو وضع اجتماعى مرغوب.

فالطبيب المسلم يأنف من الخديعة والغش والغدر والكذب مهما جرت عليه هذه الصفات من منافع مادية أو أدبية ومهما حققت له من مكاسب.

فقد حذرنا النبى ﷺ فقال:

«من حمل علينا السلاح فليس منا، ومن غشنا فليس منا»

[رواه مسلم].

«كبرت خيانة أن تحدث أخاك حديثًا. هو لك مصدق وأنت له كاذب»

[رواه البخارى].

إن وجدان الطبيب المسلم المرهف الصادق لا يطيق الغش ولا يصبر عليه، بل إنه ليرتجف هلعًا منه، إذ يرى فى ارتكابه انخلاعًا من الانتساب للإسلام، فهو لا يغش ولا يخدع ولا يغدر.

وقد يندفع الطبيب إلى الكذب حين يعتذر عن خطأ وقع منه، ويحاول التملص من عواقبه، وهو فرار من الشر إلى مثله أو أشر.

والواجب أن يعترف الإنسان بخطئه، ويتحمل مسئولية أعماله، فلعل صدقه فى ذكر الواقع، وألمه عما بدر منه يمسحان هفوته ويغفران ذلته فقد

قال رسول الله ﷺ : **«تحروا الصدق وإن رأيتم أن الهلكة فيه فإن فيه النجاة»** [ابن أبى الدنيا].

ومن الصفات المرزولة التى صارت ملتصقة بمجتمع الأطباء ولا تذكر إلا ذكر الأطباء معها، وهى التخلف عن المواعيد المضروبة والمحددة للمرضى سلفا وهذا الأمر يعد خرقاً للمصالح وإضراراً بالناس وإهداراً للأوقات.

وقد كان رسول الله ﷺ يقدس الكلمة التى يقول، ويحترم الكلمة التى يسمع، ويفى بالوعد الذى ضربه على نفسه.

فعن عبد الله بن أبى الحماء قال:

« بايعت رسول الله ببيع قبل أن يبعث فبقيت له بقية فوعدته أن آتيه بها فى مكانه، فنسيت، ثم ذكرت بعد ثلاثة فجئت فإذا هو فى مكانه! فقال: يا فتى لقد شققت على! أنا ها هنا منذ ثلاث أنتظرك».

[أبو داود]

فقد كان رسول الله ﷺ يحضر فى الموعد المضرب بينهما.

ومن الصدق ألا يصدر عن الطبيب المسلم بيان أو شهادة بشأن مرض أو عاهة على خلاف الحقيقة، لأن ذلك من شأنه الاخلال بالتوازن بين حقوق الأفراد وواجباتهم واضطراب العلاقات بينهم فى كثير من المجالات كالأحوال الشخصية، وعلاقات العمل، والوظائف العامة، وسير الإجراءات القضائية.

ومثال ذلك الشهادات المرضية المدلسة لمن اعتاد الغياب عن مدارسهم

وأعمالهم. والتقارير الطبية فى حالة المتخاصمين من الناس.

وذلك لأن التزوير كذب كثيف الظلمات، إنه لا يكتم الحق فحسب بل يمحقه ليثبت مكانه الباطل.

فعن أبى بكره: قال رسول الله ﷺ: «**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر، ثلاثًا. قلنا: بلى، قال: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، وكان متكئًا فجلس، وقال: ألا وقول الزور وشهادة الزور، فمازال يكررها حتى قلنا: ليته سكت!**». [رواه البخارى].

خامساً: حريص على نفع الناس

الطبيب المسلم الذى يتربى على هدى الإسلام وترتوى نفسه من معينه الطهور حريص كل الحرص على نفع مرضاه ودفع الضر عنهم. لا يطيق أن يرى الفرصة متاحة لفعل الخير وبذل الجهد ولا ينتهزها وإنه ليعلم أن فعل الخير يؤدى إلى الفلاح ﴿**وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴿٧٧﴾﴾ [الحج: ٧٧].

والطبيب المسلم الحق هو الذى يفعل الخير دوما ولا يصدر عنه شر، ذلك أنه ينطلق دوما من قول الرسول ﷺ.

«**من أصبح ولم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم**» [رواه الحاكم].

وهذا يتطلب من الطبيب المسلم أن يكون فعال ودؤب ويتسبط فى خدمة مرضاه مصدقا لقول رسول الله ﷺ:

«**لا يزال الله فى حاجة العبد ما دام العبد فى حاجة أخيه**» [الطبرانى].

ويجعل التبرم من خدمة الناس مع القدرة عليها مهدداً للنعم بالزوال

كما فى حديث ابن عباس قال رسول الله ﷺ :

«ما من عبد أنعم الله عليه نعمة فأسبغها عليه، ثم جعل من حوائج الناس فتبرم، فقد عرض تلك النعمة للزوال» [رواه الطبرانى] .

وقد كان ﷺ أسرع الناس مبادرة لنجدة الآخرين ودفع الأذى عنهم فعن أنس بن مالك – رضى الله عنه – **«قال كان رسول الله ﷺ أشجع الناس، وأحسن الناس وأجود الناس، قال. فزع أهل المدينة ليلة. فانطلق الناس قبل الصوت، فتلقاهم رسول الله ﷺ وقد سبقهم وهو يقول لن تراعوا – وهو على فرس لأبى طلحة عُرى فى عنقه السيف»** [الطبقات الكبرى – ابن سعد] .

وعن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : **«المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا»** . [البخارى]

أن أبسط تأمل – فى واقعنا المعاصر. يوقفنا على كون هذه المعانى قد غابت بشكل كبير من حياة كثير من الأطباء فإن بلاد المسلمين من أكثر البلاد الآن عرضه للكوارث والأزمات والضحية الأولى هى الشعوب. وهذا يحتاج إلى بذل جهد ومروءة ونجدة وشجاعة وتضحية من الأطباء.

فهل أنت أيها الطبيب المسلم ستكون فى أول الصف حين ينادى النداء ويهتف الداعى ؟!

سادساً : حَيىّ سِّتير يحفظ الأسرار

الطبيب بحكم عمله وطبيعته، تتكشف أمامه العورات بلا تحفظ،

وتتداول أمامه الأسرار بلا حرج، ويتعرف على ما خفى عن أعين الناس. فلابد أن يتصف بالحياء والستر فيترفع عن الصغائر والدنايا. له من خلقه الرصين الذى رباه عليه الإسلام ما يصرفه عن الخوض فى أعراض الناس، ويصون لسانه عن المجاهدة بالمعصية، سواء أكانت منه أم سمعها أو رأها عن غيره عملاً بقول رسول الله ﷺ.

«لا يستر عبدُ عبداً فى الدنيا إلا سترة الله يوم القيامة» [رواه مسلم].

وجاء قوم إلى عقبة بن عامر فقالوا:

إن لنا جيراناً يشربون ويفعلون أفنرفعهم إلى الإمام قال: لا، سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«من رأى من مسلم عورة فسترها كان كمن أحيا مؤدوة من قبرها».

إن الطبيب المسلم الحق لا يكون همه التنقيب عن عورات الناس وعيوبهم وفضحهم والتشهير بهم.

وقد حذرنا النبى من ذلك بقوله:

«إنك إن اتبعت عورات المسلمين أفسدتهم أو كدت أن تفسدهم»

[رواه أحمد].

ومن أدب الطبيب المسلم ألا يحد بصره فى بيت مرضاه، ولا ينقب عن العورات فيه. فذلك ليس من خلق المسلم الحىّ الستير المؤدب، وقد توعد الرسول الكريم أصحاب العيون المرسلة فى المجالس، المنقبة المتفحصة ثغراتها وعوراتها وأحل فقأ عيونهم، إذ قال:

«من اطلع فى بيت قومٍ بغير إذنهم، فقد حل لهم أن يفقؤوا عينه»

[رواه مسلم].

والطبيب حين يفقد حياءه، يتدرج من سيئ إلى أسوأ ويهبط من رذيلة إلى أرذل ولا يزال يهوى حتى ينحدر إلى الدرك الأسفل.

«إن الله عز وجل إذا أراد أن يهلك عبداً نزع منه الحياء، فإذا تزع منه الحياء لم تلقه إلا مقيتاً ممقتاً فإذا لم تلقه إلا مقيتا ممقتا نزعت منه الأمانة. فإذا نزعت منه الأمانة لم تلقه إلا خائناً مخونا، فإذا لم تلقه إلا خائنًا مخونا، نزعت منه الرحمة فإذا نزعت منه الرحمة لم تلقه إلا رجيما ملعنا، فإذا لم تلقه إلا رجيما ملعنا نزعت منه ربقه الإسلام» [ابن ماجه].

فإذا فقد الطبيب حياءه وفقد أمانته أصبح وحشًا كاسراً ينطلق معربداً وراء شهواته. ينظر إلى آلام المرضى المنكوبين والمستضعفين فلا يهتز فؤاده بشفقه ولا رحمة. وشرائع الإسلام تحفظ للمريض والطبيب حيائهم إذا التزما بها. فقد أجازت للطبيب النظر إلى المواضع التى يقوم على علاجها بشروط كما جاء فى حديث مسلم عن أم سلمة رضى الله عنها أنها استأذنت رسول الله ﷺ فى الحجامة فأمر النبى ﷺ أبا طيبة أن يحجمها.

وهذه الشروط:

١ – أن يكون الطبيب تقيًا أمينًا عدلاً ذا اختصاص وعلم.

٢ – أن لا يكشف من أعضاء المرأة إلا قدر الحاجة إذا تعين النظر.

٣ – أن لا تكون هناك امرأة مختصة تقوم مقام الطبيب فى علمه

واختصاصه.

٤ – أن تكون المعالجة بوجود محرم، أو زوج، أو امرأة ثقة كأمها أو أختها أو جارتها.

فإذا توافرت هذه الشروط فيجوز للطبيب أن ينظر أو يلمس موضع العورة بالنسبة للمرأة. لأن الإسلام دين يدفع عن الناس الحرج. ويجلب لهم المصلحة والتيسير، فمبدؤه فى ذلك.

﴿ **وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ** ﴾ [الحج: ٧٨].

﴿ **يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ** ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وإذا ائتمن المريض طبيبه سراً، فلا يجوز له أن يفشيه فحفظ السر دليل رجولة المرء، وقوة شخصيته، ومتانة خلقه، وحديث المريض لطبيبه أمانة فلا يدع لسانه يفشى أسرارها، ويسرد أخبارهم.

فقد قال رسول الله ﷺ.

«**إذا حدث رجلُ رجلاً بحديث ثم التفت، فهو أمانة**» [رواه أبو داود].

وقد أمرنا الله عز وجل بحفظ الأمانة.

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ** (٢٧) ﴾ [الأنفال: ٢٧].

وقد اعتبر رسول الله ﷺ خيانة الأمانة إحدى خصال النفاق، إذ روى عنه أبو هريرة أنه قال:

«**آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان**»

[رواه البخارى ومسلم] .

ولا يجوز للطبيب أن يفشى سر مرضاه إلا فى حالات خاصة وهذه الحالات قد تتعلق بأمن المجتمع وحماية أفراده من الأخطار التى تتهددهم، أو المحافظة على صحة الأفراد ووقايتهم من الأمراض ومثال ذلك :

١ – اخبار السلطات المختصة عن الجرائم التى علم بها الطبيب من خلال ممارسته لمهنته .

٢ – إذا طلب من الطبيب الشهادة فى قضية بعينها أو إعداد تقرير مفصل عن حالة مريض أو مصاب لأن الله عز وجل حذرنا من كتم الشهادة ﴿ **وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ** ﴾ [البقرة : ٢٨٣] .

ونهانا عن قول الزور فقال :

﴿ **وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (٣٠)** ﴾ [الحج : ٣٠] .

﴿ **وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (٧٢)** ﴾

[الفرقان : ٧٢] .

وقد حذرنا النبى ﷺ من ذلك أشد التحذير حين قال :

«ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ قلنا ؟ بلى يا رسول الله قال : الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وكان متكئًا فجلس، فقال : ألا وقول الزور. فمازال يكررها حتى قلنا : ليته سكت» .

٣ – إذا كان إفشاء السر لمصلحة أحد الزوجين. بحيث يكون هذا الإفشاء

لصاحب المصلحة منهما فيه.

٤ – إذا كان الإفشاء بقصد منع حدوث جريمة.

٥ – إذا كان الإفشاء بقصد الإخبار عن الأوبئة والأمراض المتفشية وذلك للتوقى والعلاج منها.

والناظر إلى الحالات المستثناه من وجوب كتمان السر، يدرك أن إفشاء السر فيها تقتضيه الضرورة أو الحاجة، أو المصلحة العامة. وقواعد الشريعة الكلية لا تمنع جواز إفشاء السر فى هذه الحالات، إذا اقتضته الحاجة، أو المصلحة العامة. ومن أمثلة هذه القواعد:

«الضرورات تبيح المحظورات».

«دفع المفسدة مقدم على جلب المصلحة».

«وترجيح المصلحة الأعلى على المصلحة الأدنى».

سابعاً: رقيق رحيم:

الطبيب عندما يجرى بالجسم جراحة، يستخدم مبضعة لتمزيق اللحم، وقد يضطر لتهشيم العظام، وبتر الأعضاء، وقد يصف دواءً غير مستساغ الطعم، ما يفعل ذلك إلا رحمة بالمريض.

فالطبيب المسلم لطيف رفيق بالمريض، حين يحسن اللطف ويستحب الرفق، ذلك أن اللطف والرفق خصال حميدة، يحبها الله فى عباده المؤمنين، لأنها تكسب من تحلى بها دماثة الخلق ورقة الجانب وحسن العشرة وتجعله قريباً من نفوس الناس محبباً إلى قلوبهم.

«إن الله رفيق يحب الرفق فى الأمر كله».

«إن الرفق لا يكون فى شىء إلا زانه، ولا ينزع من شىء إلا شانه»

[رواه مسلم].

«من يحرم الرفق يحرم الخير كله» [مسلم].

والطبيب المسلم رحيم – تتفجر ينابيع الرحمة من قبله إذ يدرك أن رحمة العباد فى الأرض، سبب لرحمة السماء تنهل عليه بنداها الرطب.

«ارحم من فى الأرض يرحمك من فى السماء» [الطبرانى].

«من لم يرحم الناس لم يرحمه الله» [الطبرانى].

«الرحمة لا تنزع إلا من شقى» [البخارى].

وكان رسول الله ﷺ مثالاً فذاً للرحمة تجسدت فيه معانيها وفاضت بها نفسه، حتى أنه ليكون فى الصلاة فيسمع بكاء الصبى فتأخذه الرحمة بأمه الولهى لبكاء طفلها فيوجز فى صلاته وذلك فيما أخرجه الشيخان عن أنس رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال:

«إنى لأدخل الصلاة، وأنا أريد أن أطيلها، فأسمع بكاء الصبى فأتجور فى صلاتى، مما أعلم من شدة، وجد أمه من بكائه».

فما بالك أيها الطبيب المسلم.

بأنين المريض – وتأوه الموجوع – وصراخ المصاب.

وقد برز ذلك الخلق العظيم فى العلاقات الاجتماعية الداخلية، فرأينا

المجتمع المسلم تسوده عواطف كريمة، ومشاعر نبيلة كلها تفيض بالرفق والمرحمة، وتتدفق بالبر والخير. وتجلت هذه المشاعر والعواطف فى صورة عجيبة وفريده لم توجد إلا فى الإسلام وسميت بنظام «الوقف الخيرى» وعرف هذا بوقف «خداع المريض».

وهو وقف فيه وظيفة من جملة وظائف المعالجة فى المستشفيات، وهى تكليف اثنين من الممرضين أن يقفا من المريض، بحيث يسمعهما ولا يراهما، فيقول أحدهما لصاحبه: ماذا قال الطبيب عن هذا المريض؟

فيرد عليه الآخر: إن الطبيب يقول: إنه لا بأس فهو مرجو البرء، ولا يوجد فى علته ما يشغل البال، وربما نهض من فراش مرضه بعد يومين أو ثلاثة أيام.

وكان هذا السلوك مرجعه الرفق والرحمة بالمرضى، وذوى العاهات، فإن أولئك المصابين يستقبلون الحياة بوسائل منقوصة تعجزهم عن المسير فيها، وقد عذرهم الله عز وجل فلا يجوز أن نؤاخذهم بما أعفاهم الله منه.

﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾

[الفتح: ١٧]

فقد قال رسول الله ﷺ:

«الإنسان بنيان الرب ملعون من هدمه».

والمريض شخص قيدته العلة، ونقصه حر الداء ومر الدواء ولذلك يجب

على الطبيب المسلم أن يحاذر من الإساءة إلى المريض، والاستهانة براحته، فإن القسوة معه جرم غليظ.

ثامناً: يشارك المريض فى آلامه:

المريض فى المجتمع الإسلامى يجب أن يشعر ساعة الشدة والكرب والآلم أنه ليس وحده، وأن عواطف المحيطين به ودعواتهم تغمره وتخفف من آلامه وبلواه. وهذه ذروة الرقى الإنسانى، وقمة سمو المشاعر الإنسانية، ولم تعرف أمة فى التاريخ هذا الدفىء العاطفى.

إن الإنسان المريض فى الغرب قد يجد المستشفى الذى يضمه والطبيب الذى يسعفه ويداويه، ولكنه قلما يجد اللمسة الحانية والكلمة الشافية، والبسمة المنعشة، والدعوة المخلصة والمشاركة الوجدانية الصادقة.

وذلك لأن الفلسفة التى غشت حياة الغربيين، أطفأت فيها نورانية العاطفة الإنسانية، وغطت شفافية الشعور الأخوى، وحجبت الإنسان عن الدوافع غير المادية لفعل الحق.

فيجب على الطبيب المسلم أن يتجاوب مع شكوى المريض ويواسيه ويشاركه مشاركة وجدانية.

فقد وصف الشاعر المريض حين تفيض به الآلام وتشتد به الشكوى.

شكوت وما الشكوى لمثلى عادة

ولكن تفيض الكأس عند امتلائها

وقال آخر:

ولابد من شكوى إلي ذى مـــروءة

يواســـيك أو يسليك أو يتـــوجع

والطبيب قادر أن يخفف عن المريض باللمسة الحانية والكلمة الهادية، والدعوة الصالحة.

كما فعل رسول الله ﷺ مع سعد رضى الله عنه - فقد روت عائشة بنت سعد أن أباها قال: «**تشكيت بمكة شكوى شديدة، فجاء النبى ﷺ يعودنى فوضع يده ثم مسح يده على وجهه وبطنى ثم قال: اللهم اشف سعداً وأتمم له هجرته، قال سعد: فمازلت أجد برده على كبدى، فيما يخال إلى حتى الساعة**» [البخارى - الأدب المفرد].

يقوى الرجاء فى العافية عند المريض:

إذا يئس المريض من الشفاء كره الدواء والطبيب، والعيادة والصيدلية، وضاق بالحياة والأحياء، ولم يعد يجديه علاج - إلا أن يعود إليه الأمل والرجاء فى العافية.

واليأس يحدث فى أعضاء صاحبه

ضـعـفـاً ويورث أهل العـزم توهينا

ويحسن بالطبيب أن يغذى روح التفاؤل والرجاء عند المريض ويحمل إليه البشرى والأمل فى الشفاء وأن المؤمن لا ييأس من روح الله. ولا يقنط من رحمة ربه، وإن الذى كشف الضر عن أيوب، ورد البصر إلى يعقوب،

قادر أن يكشف عنه ضره، ويرد عليه عافيته، ويبدله من السقم صحة، ومن الضعف قوة.

ولا يحسن به أن يذكر للمريض الذين ماتوا، بل يذكر الذين استردوا عافيتهم بعد المرض الطويل، وبعد جراحات خطيرة وذلك لتقوية روحه المعنوية.

ولهذا كان النبى ﷺ يقول للمريض، «لابأس طهوراً إن شاء الله».

ومعنى لا بأس – أى لا شدة ولا حرج فهو تفاؤل ودعاء بأن يزول عنه البأس والضر، وترجع له الصحة والعافية.

وقد روى الترمذى وابن ماجه عن أبى سعيد الخدرى مرفوعاً: «**إذا دخلتم على المريض فنفسوا له فى أجله – فإن ذلك لا يرد من القدر شيئاً وهو يطيب نفسه**» ومعنى (نفسوا له) أى أطعموه فى الحياة وطول الأجل.

وفى هذا الحديث نوع شريف جداً من أشرف أنواع العلاج. وهو الإرشاد إلى ما يُطيب نفس العليل من الكلام الذى تقوى به الطبيعة، وتنعش به القوة، فيساعد على دفع العلة، أو تخفيفها الذى هو غاية تأثير الطبيب.

وفى قوله ﷺ «لكل داء دواء» تقوية لنفس المريض والطبيب، وحث على طلب داء الدواء، والتفتيش عليه، فإن المريض إذا استشعرت نفسه أن لدائه دواءً يزيله، تعلق قلبه بروح الرجاء، وبردت عنده حرارة اليأس، وانفتح له باب الرجاء. ومتى قويت نفسه انبعثت حرارته الغريزية، وكان ذلك سبباً لقوة الأرواح الحيوانية والنفسانية والطبيعية، ومتى قويت هذه

الأرواح، قويت القوى التى هى حاملة لها. فقهرت المرض ودفعته.

وكذلك الطبيب إذا علم أن لهذا الداء دواء أمكنه طلبه والتفتيش عليه.

وتفريح نفس المريض، وتطييب قلبه، وإدخال ما يسره عليه له تأثير عجيب فى شفاء علته وخفتها.

تاسعاً: متواضع غير متكبر طليق الوجه:

يقول الرسول ﷺ: «ما تواضع أحد لله إلا رفعه الله» [مسلم].

«إن الله أوحى إلىّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحدٌ على أحد ولا يبغى أحد على أحد» [مسلم].

ولقد كانت سيرته العملية مثالاً حياً فذاً فى التواضع وخفض الجناح ولين الجانب، وسماحة النفس، حتى إنه كان ليمر على الصبيان يلعبون، فلا تحجبه النبوة والمنزلة العظمى التى خصه الله بها من بين الناس جميعاً من أن يسلم على أولئك الصبيان ويهش لهم وينبسط معهم.

فقد ذكر أنس رضى الله عنه أنه مر على الصبيان فسلم عليهم وقال: **«كان النبى يفعل ذلك»**.

فلماذا يتكبر بعض الأطباء، فلا يسلمون على مرضاهم أو يتبسطون معهم فى الكلام فيستمعون لهم بآذان صاغية بل يحدثونهم من علٍ بأنفه واستكبار.

وإنه لحرى بالطبيب المسلم أن يكون نقى السريرة. صافى القلب، بشٍّ

الوجه، طلق المحيا، مفتر الأسارير لا يلق مرضاه إلا متهللاً مبتسماً كما أراد رسول الله ﷺ بقوله:

«لا تحقرنَّ من المعروف شيئًا ولو أن تلقى أخاك بوجه طليق»

[رواه مسلم].

ومن هنا كان هدى الرسول الكريم.

«تبسمك فى وجه أخيك صدقة» [الترمذى].

فبشاشة الوجه خليقة حسنة حض عليه الإسلام، وجعلها من الأعمال الصالحات، لأن الوجه الطليق الصافى مرآة القلب النظيف.

وأخرج الشيخان عن الصحابى الجليل جرير بن عبد الله أنه قال:

ما رأنى رسول الله ﷺ منذ أسلمت إلا تبسم فى وجهى.

هذا هو الطبيب المسلم الذى نريد أن يكون غرة فى جبين المجتمعات، حتى نلمس الفرق بنه وبين الطبيب الذى سيطرت عليه جفاف العاطفة، لا يهش لمريض، ولا يكاد يفتر ثغرة عن ابتسامة عطف وشفقة لجريح، وإنما هو دوماً مشغول، مهموم بالأعمال وبما يحصله من مال وهذا أطفأ فيه شعله العاطفة الإنسانية.

عاشراً: لا يغالى فى أتعابه وينفس عن المعسر:

الطبيب المسلم سمح، حسن المعاملة، رضى الخلق يبادر إلى التنفيس عن المعسر عملاً بقوله تعالى:

﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ [البقرة: ٢٨٠].

فالإسلام يريد منك أن تكون إنساناً قبل أن تكون صاحب حق، فإذا وجدت من المريض عُسر مطبق عليه قدر الضيق الذى هو فيه، وضع عنه قيمة أتعابك أو تنازل عن بعضها، وأنت تفعل ذلك تمثل أمر ربك وقدم عملاً صالحاً ينجيك من كرب يوم القيامة.

فعن أبى قتادة رضى الله عنه قال:

سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من سره أن ينجيه الله من كرب يوم القيامة فلينفس عن معسر أو يضع عنه**» [رواه مسلم].

«**ومن يستعفف يعفه الله... ومن يستغن يغنه الله**».

وقد قسم ابن الحاج المغربى فى كتابه «المدخل» المرضى إلى ثلاثة أقسام وبين ما يجب على الطبيب تجاههم فقال:

والناس على ثلاثة أقسام:

- أغنياء يؤخذ منهم الطبيب أجره كاملاً.
- مستورون لا يؤخذ منهم إلا إذا كان الطبيب فى حاجة إلى هذا الأجر.
- فقراء معدمون يعطيهم الطبيب من عنده.

وهكذا يكون الطبيب المسلم إنساناً قبل أن يكون صاحب حق.

الحادى عشر: حسن الهيئة:

الطبيب المسلم يعنى بلباسه وهندامه، فلا يهمل نفسه، ولا ينسى ذاته، إذ لا ينفصل فى تصوره مظهر الإنسان عن مخبره، فإن الشكل النظيف المرتب الحسن أليق بالمحتوى الجليل والجوهر النبيل.

ولذلك تراه حسن الهيئة، أنيق المظهر من غير مغالاة ولا سرف، ترتاح لمرآه العيون، وتأنس به النفوس. لا يغدو على مرضاه فى هيئة مزرية قميئة مهلهلة، بل يتفقد نفسه دوماً قبل خروجه على مرضاه، فيتجمل لهم باعتدال.

فقد روت عائشة رضى الله عنها:

قالت: كان نفر من أصحاب رسول الله - ﷺ - ينتظرونه على الباب فخرج يريدهم، وفى الدار ركوة فيها ماء، فجعل ينظر فى الماء، ويُسوى لحيته وشعره، قالت عائشة:

فقلت له: يا رسول الله: وأنت تفعل هذا؟

قال: نعم. إذا خرج الرجل إلى إخوانه. فليهىء من نفسه فإن الله جميل يحب الجمال.

وما دام التجمل لا يبلغ حد التأنق المفرط فهو من الزينة الطيبة التى أباحها الله.

فقد سأل رجل رسول الله ﷺ: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعلاه حسنة؟.

قال النبى ﷺ: «**إن الله جميل يحب الجمال**».

«**الكبرُ بطر الحق وغمط الناس**».

وقد أمرنا الله تعالى:

﴿ **خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ** ..... ﴾ [الأعراف: ٣٢، ٣٣].

والطبيب المسلم يستعين بالطِّيب أيضاً فلقد روى عن سيدنا عمر رض الله عنه أنه كان يقول:

«من أنفق ثلث ماله فى الطيب ما كان مسرفاً».

فالإسلام يريد منا النظافة دوماً، تفوح الروائح الذكية من الثياب والأبدان وهذا ما كان عليه رسول الله ﷺ.

فيما رواه الإمام مسلم بإسناده عن أنس بن مالك رضى الله عنهما قال:

«ما شممتُ عنبراً قط، ولا مسكاً ولا شيئًا أطيب من ريح رسول الله ﷺ».

والنبى ﷺ كان إذا صافح أحداً. ظل يومه يجد ريح الطيب فى يده. وإذا وضع يده على رأس الصبى، عرف من بين الصبيان بالرائحة الذكية.

ومن هدى النبى أيضاً أمره ﷺ برعاية الشعر وإصلاحه وتجميله التجميل المشروع فى الإسلام.

فقال فى الحديث الذى رواه أبو داود عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ **«من كان له شعر فليكرمه»**.

فيا أيها الطبيب المسلم، الإسلام يريد منك أن تكون شامة فى الناس. متميز فى زيك وهيئتك، حتى تكون قدوة حسنة تجعلك جدير باحترام الناس لك.

الثانى عشر: ينصح مرضاه فيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر:

الطبيب المسلم ناصح لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم

كما جاء فى الحديث الذى رواه مسلم أن النبى ﷺ قال:

«الدين النصيحة» قلت لمن؟ قال لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم؛ فلا عجب أن يكون الطبيب ناصحاً لمرضاه ومن يتعامل معهم لا يخدعهم ولا يغشهم.

والنصيحة فى حس المسلم المرهف من أمهات قواعد الإسلام التى كان المؤمنون الأولون يبايعون رسول الله ﷺ عليها. كما جاء على لسان جرير بن عبد الله رضى الله عنه **«بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم»**.

فينبغى للطبيب المسلم أن ينصح مريضه بصدق، فيأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر. فالأمر والنهى فريضة.

ومرض المسلم لا يعفيه من تقبل الكلمة الطيبة، والنصحية المخلصة، وكل ما هو مطلوب أن يراعى الناصح حاله فيرفق به ولا يثقل عليه.

والله تعالى يحب الرفق فى الأمر كله. ومع الناس جميعاً وهو مع المريض أولى، وما دخل الرفق فى شىء إلا زانه وما نزع من شىء إلا شانه.

فمن وجد مريضه لا يصلى، كسلاً أو جهلاً لظنه أنه لا يستطيع الصلاة لعدم قدرته على الوضوء، أو عجزه عن القيام، أوالركوع، أو السجود، أو عدم تمكنه من التوجه إلى القبلة.. أو غير ذلك.

فالواجب على الطبيب أن ينبهه على أن الصلاة تجب على المريض وجوبها على الصحيح وأنها لا تسقط إلا بفقد الوعى، وأن المريض الذى

يعجز عن الوضوء يمكنه أن يتيمم بأى شيء من جنس الأرض.

وكذلك يستطيع المريض أن يصلى كيف استطاع: قاعداً إن لم يستطع القيام، أو مضجعاً على جنب، أو مستلقياً على ظهره إن لم يستطع القعود، ويكفيه الإيماء والإشارة. وقد قال النبى ﷺ لعمران بن حصين: «**صل قائماً. فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم تستطع فعلى جنب**» [البخارى].

والله تعالى يقول: ﴿**فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ**﴾ [التغابن: ١٦].

فإن وجد المريض متضجراً من المرض. ضائق الصدر به، فينبغى أن يذكره بما للمريض عند الله من عظيم المثوبة، وأن الله يطهره بالمرض من خطاياه. وأن أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل، وما يزال البلاء ينزل بالعبد، حتى يمشى على الأرض وما عليه من خطيئة.

وإذا وجد عند المريض ما لا يجوز شرعاً. نهاه عنه بلطف وحكمة وذكر له من أدلة الشرع ما يزيح عنه الجهل والغفلة دون تعنيف له. ولا استعلاء عليه.

فالطبيب المسلم يحسن به أن يكون كالتاجر الذى يعرض بضاعته، فيختار الوقت والزمن الملائمين، ويتعامل مع الحوادث التى يتعرض لها. فيخاطب العقول بما يلامس أوتارها، ويحرك كوامنها.

فالطبيب عندما يكون حكيماً ولبقاً، لينا وفاهماً يستطيع أن يكسب مشاعر غيره، وينصهر فى أعماق نفوسهم فالله يخاطب نبيه محمداً صلى

ﷺ بقوله: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥].

ونحن الأطباء، لنا احتكاك ومعاملات مع فئات مختلفة من البشر مع اختلاف مستوياتهم. وعلى تباين وجهات النظر ولكنهم فى لحظة مرض وضعف.. ينتظرون من يأخذ بأيديهم.. أو ينير لهم طريقهم وهى فرصة ملائمة يحسن للطبيب المسلم انتهازها.

واختيار ما ينعش النفوس ويلامس أوتار القلوب، وقت اشتداد المرض له دور فى الاستجابة، فكل من ضرب على وتر لابد أن يشجى سامعه ويؤثر فى عقله الباطن.

ويظهر ذلك أروع ما يكون حين يحرص الطبيب المسلم على القيام بواجب العبادات، وفرائض الطاعات حيثما كان وحيثما جل، وحيثما ارتحل، لا يجد فى ذلك غطاطة ولا تهاونا.

ولاشك أن العبادات بأسرها إذا التزمها الطبيب المسلم فى حينها، وأداها فى وقتها، تميز عن غيره من الناس وأنه عبد لله سبحانه وتعالى، وأنه المؤمن الراسخ الذى لا يخاف فى الله لومة لائم.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣].

فما أروع أن يكون الطبيب فى عمله أو جامعته أو معمله ويسمع نداء المؤذن «الله أكبر.. حى على الصلاة».

فيقوم ملبياً داعياً مرضاه إلى مشاركته فى الصلاة أليست هذه الصورة البهية تدل على الولاء لله، وأليس هذا التميز أبلغ من ألف خطبة وموعظة فيها دعوة للصلاة.

إن الطبيب المسلم الصادق إسلامه، الحى إيمانه أبعد ما يكون عن السلبية، واللامبالة، لا يتهاون فى قضايا دينه. ولا يتقاعس عن الأمر بالمعروف، ولا يستمرىء المنكر ولا يألفه، ولا يقعد عن إنكاره، وتغيير ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

وختاماً

لقد بينت الفصول السابقة مقومات الطبيب المسلم كما أرادها الإسلام، وظهر منها أن الطبيب المسلم الذى أراده الإسلام نموذجاً عجيباً وفريداً ومتميزاً من البشر، تمثلت فيه قيم الإسلام وأخلاقه.

فهذه هى الصورة الوضيئة الجلية المشرقة لشخصية الطبيب المسلم الذى صاغه الإسلام. وارتوت نفسه من مناهله العذب،و استنار عقله وروحه بنوره الربانى.

وإن الوصول بالطبيب إلى مثل هذا المستوى العالى من مكارم الأخلاق، وترجمتها سلوكاً حياً يمشى على الأرض، لأكبر إنجاز حضارى تتطلع إلى تحقيقه النظم والشرائع والفلسفات، ولم يتحقق ذلك إلا للإسلام.

ونحن الأطباء يجب علينا أن نترنم بمعزوفة الطبيب المسلم حتى تصير نشيداً لنا يذكرنا ببعض خصائصنا ومزايانا، ويلفت نظرنا إلى ما يرفع من مكانتنا، ويقوى شخصيتنا ويدل علينا ويميزنا عن غيرنا.

معزوفة الطبيب المسلم

- مؤمن بالله ورسالاته، وكتبه، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره.

- مجند لاستكمال الصحة مادامت الحياة، فالله وحده واهب الحياة والموت.
- قمة فى تخصصه العلمى، فالحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أولى الناس بها.
- صادق إن قال أو كتب أو شهد.
- قدوة صالحة، فلا يأمر الناس إلا بما يأتمر، ولا يناهم إلا عما ينتهى عنه.
- وقور، عف اللسان، غضيض الصوت والبصر، سوى الهندام، يوحى بالثقة، يصون كرامته، مهذب مع الجميع، متواضع فلا يناله الزهو أو الغرور.
- شاكر لنعمة الله، عالم أن من نعم الله عليه حاجة الناس إليه.
- يعالج مرضاه بما أحل الله من دواء، إلاَّ عند الضرورة.
- عنده قدر من الدراية بالفقه، وأحكام العبادات ويستطيع الإجابة على تساؤلات المرضى فيما يتعلق بها، كرخصة الفطر، ومناسك الحج، والتحكم فى الحمل، وختان البنات، والصوم وغير ذلك من الأعذار والرخص.
- يستزيد دائماً من العلم. وهذا فى ذاته عبادة ما طالت به الحياة.

فهل أنت يا أخى الطبيب كذلك؟

أسأل الله أن نكون كذلك

أمين

المراجع

١ – القرآن الكريم.

٢ – الجامع لأحكام القرآن — تفسير القرطبى.

٣ – الطب النبوى — ابن القيم الجوزية.

٤ – الطبيب أدبه وفقهه — د. محمد على الباد.

٥ – الإيمان والحياة — د. يوسف القرضاوى.

٦ – إحياء علوم الدين — أبو حامد الغزالى.

٧ – حول إعادة تشكيل العقل المسلم — د. عماد الدين خليل.

٨ – خلق المسلم — محمد الغزالى.

٩ – دراسة فى البناء الحضارى — د. محمود محمد سفر.

١٠ – دليل الفالحين — الصديقى الشافعى.

١١ – زاد المعاد — ابن القيم الجوزية.

١٢ – شخصية المسلم المعاصر — مصطفى محمد الطحان.

١٣- شخصية المسلم كما يصوغها الإسلام فى الكتاب والسنة

د. محمد على الهاشمى.

١٤- عقيدة المسلم — محمد الغزالى.

١٥- فتاوى معاصرة — د. يوسف القرضاوى.

١٦- قضايا طبية من منظور إسلامى — د. عبد الفتاح محمود إدريس.

١٧- مدخل إلى الطب الإسلامى — د. على محمد مطاوع.

١٨- مقومات الشخصية المسلمة — د. ماجد عرسان الكيلانى.

١٩- موقف الإسلام — د. يوسف القرضاوى.

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٣
الفصل الأول:	
– الإسلام ومهنة الطب	٧
– ثقافة محزنة وواقع أليم	١٣
– نكون أو لا نكون	١٥
الفصل الثانى:	
– **مقومات الطبيب المسلم**	١٧
أولاً: سليم العقيدة	٢١
ثانياً: مخلص فى عمله متقن له	٢٦
ثالثاً: قمة فى تخصصه المهنى	٣١
رابعاً: صادق فى قوله وعمله	٣٥
خامساً: حريص على نفع الناس	٣٨

سادساً: حيى ستير يحفظ الأسرار ٣٩

سابعاً: رقيق رحيم ٤٤

ثامناً: يشارك المريض فى آلامه ٤٧

تاسعاً: متواضع غير متكبر طليق الوجه ٥٠

عاشراً: لا يغالى فى أتعابه وينفس عن المعسر ٥١

الحادى عشر: حسن الهيئة ٥٢

الثانى عشر: ينصح مرضاه فيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ٥٤

الخاتمة ٥٩

المراجع ٦١

الفهرس ٦٣

معزوفة الطبيب المسلم

- مؤمن بالله ورسالاته وكتبه ورسله واليوم الآخر.
- مؤمن بالقدر خيره وشره.
- قمة فى تخصصه العلمى.
- قدوة صالحة.
- صادق إن قال أو كتب أو شهد.
- شاكر لنعمة الله.
- وقور - عف اللسان.
- متواضع - مهذب مع الجميع.
- يعالج مرضاه بما أحل الله.
- عنده قدر كافى من الفقه والعبادات.
- يستزيد دائماً من العلم.

توزيـــــع

دار المنار الحديثة ت وفـاكس: ٢٠٤٤١٩٤

الخلفاوى - أمام مسجد الفتح - شبرا - القاهرة - مصر

الوكيل بصنعاء - شركة البراق - شارع حدة - صنعاء ت: ٢٤٠٦١٦